الصيدلة بين المغرب والأندلس

عبد العزيز بنعبد الله

إن إحياء التراث الحضاري وخاصة منه العلمي والثقافي بالمغرب من أهم الواجبات التي يجب أن يضطلع بها المهتمون بشؤون الفكر، وذلك بالإقبال على التنقيب والتحليل للكشف عن الذخائر الأدبية والعلمية والفنية والأثرية التي أنجبتها الحضارة المغربية أيام ازدهارها وخاصة بدراسة ونشر المخطوطات التي تزخر بها مكتباتنا العامة والخاصة والتي تعطينا صورة عن الجوانب الغامضة أو المجهولة من تراثنا في مختلف المجالات.

ومن جملة هذه المؤشرات المعطيات النابعة أو الناتجة عن العناصر التوليفية للأدواء وأدويتها، لأن الله خلق الداء وخلق الدواء. فكان البحث عن هذه العوامل من الضروريات الدينية كالعلوم الإسلامية التي تفرض وجودها ومكانتها في المجتمع. ولذا كان الرسول عليه السلام يولي أهمية قصوى لكل ما من شأنه أن

يستأصل أو يقلص من سوءات الأدواء والعاهات، فكان -كما قالت عائشة أم المؤمنين- يستفسر وفود القبائل الواردة عليه عما تستعمله من أعشاب وعقاقير في هذا المجال الحيوي فائتلفت لديه من ذلك مجموعة أطلقوا عليها الطب النبوي؛ وتعد هذه الأدواء والأدوية بثلاثمائة. وقد أشار حاجي خليفة في «كشف الظنون» إلى ستة مؤلفات في الطب النبوي كتب عنها من الغربيين أمثال كايي وريسك وبيرون. ولنور الدين أبي الحسن علي ابن الجزار المصري كتاب بعنوان «السر المصطفوي في الطب النبوي»، وكذلك السيوطي وجلال الدين أبي سليمان، الذي قام بترجمته بيرون إلى الفرنسية وهو ينقل عن ابن البيطار. وتوجد رسالتان في الطب النبوي لمؤلفين مجهولين حلل أحدهما ريسك في رسائله الطبية والثاني كايي في «حياة محمد»؛ وقد أعطت هذه الرسالة لكايي فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام الذي كان يعزز تجاربه الخاصة بتجارب غيره من المؤمنين وغير المؤمنين، لأن الطب والبحث عن وسائل العلاج من الفروض الكفائية، فكان في حركاته وسكناته وأكله وشربه وفي كل أحيانه يعطي المثل الصالح لذلك؛ فكان مثلا، يمشي بعد صلاة العصر نحو ساعة في الهواء الطلق قدر ما يقرأ سورتي (البقرة) و(آل عمران). ولذلك كانت الفتوى تعطى في الطب كما تعطى في الفقه، وكان العلامة محمد الميازري يفرّع إليهم في الفتوى علاجا ووقاية كما يفرّع إليهم في الفقه. ثم جاء في العصور التالية علماء كابن سينا فوضع أرجوزته المعروفة عند الأوربيين بـــ «كانتيكم» والتي شرحها ابن رشد في كتاب ترجم إلى اللاتينية نظرا لإقبال أوربا عليه. وقد جمع هذا الكتاب مبادئ هذا العلم وخاصة منه الجانب الصيدلاني، فكان ابن زهر الأوسط يوليه الأفضلية على كتاب «القانون» الذي يعتبر مع كتاب «الحاوي»

للرازي وكتاب علي ابن عباس أعظم الموسوعات الطبية الصيدلانية التي أنتجها العرب (لوكلير، ج ا، ص 470).

وإذا رجعنا إلى المصادر التي استقى منها علماء العرب وباقي المسلمين، نلاحظ أن الطب في الإسكندرية كان مبنيا على دراسة ستة عشر كتابا لجالينوس، استعرضت في ثلاثة مصنفات هي «فهرست» ابن النديم و«كتاب الحكماء» للقفطي وكتاب «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة. وقد عرب حنين معظم كتب جالينوس؛ والغريب أن ويستنفلد وفنريش الألمانيين لم يتحدثا عن مصنفات جالينوس التي حظيت لدى أطباء الإسلام بأهمية كبرى، لأن العلم لا حدود ولا مذهبية له (عنصرية كانت أو دينية).

وبدأ علم الصيدلة منذ ذلك يتبلور كعلم له خواصه وقوانينه فأصبح تكوين الصيادلة من أولى الواجبات؛ وأجري أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام 221 هـ حيث بدأ الأطباء يؤدون القسم في مجال الصيدلة ملتزمين بأن لا يعطوا أحدا دواء مرّا ولا يركبوا له سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة مع الغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار والتوفر على جميع الآلات، وأن لا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة منذ اللحظة التي يبرز أثر الجنين في رحم أمه وهو الأسبوع الأول كما ورد في حديث رواه كل من الطبراني والبزار، وذلك ملائم لما وصل إليه العلم الحديث؛ وكانت المستشفيات تتوفر على كل الأدوية. يطوف أطباء خصوصيون على السجون وكل أنحاء البادية والجبل لمعالجة المرضى المستضعفين وهم يحملون على ظهور الجمال خزانات من الأشربة والعقاقير (القفطي، ص 132).

ومنذ ذاك توافرت المصنفات التي حفلت بمخطوطاتها المكتبات في مختلف أطراف العالم، ولذا أصبح العلماء يتنافسون في البحث والتنقيب. ففي العهد الفاطمي (القرن الرابع الهجري) كانت بالقاهرة وحدها مكتبات، منها أربعون خزانة في (قصر الخلافة) وكان الصيادلة والأطباء يعملون يدا في يد لاختيار الأصلح والأنجع من مواد وعناصر الوقاية والعلاج، فيشارك الجميع ضمن تنوع الاختصاصات بين الكحالين (أطباء العيون) والجراحين والمجبّرين للعظام، فكان في المارستان العَضُضي أربعة وعشرون من مختلف رجال الاختصاص.

ولم يكن الأطباء المسلمون يغفلون الوسائل الكفيلة بمقاومة الأمراض بجانب المصحات، وذلك ضمن ثقافة مجتمعية لتوعية الشعب، منها : حسن التغذية والنظافة وتناسب الملبوس مع الفصول، وقد نوه (رينو) بحكمة أطباء الإسلام في اختيار أزيائهم مثل الثياب الصوفية البيضاء التي توافق الصحة في البلاد الحارة والتي لا تخزن أشعة الشمس أكثر من الحاجة، ولحفظ حرارة الجسم إبان البرد، مع إعطاء الأسبقية للثوب الفضفاض الذي يساعد على تسرب الهواء الضروري للتنفس الجلدي دون أن يضغط على بعض الأجهزة مثل الكبد والمعدة («الصحة في المغرب»، ص 14). ولذلك كان بعض المغاربة من أهل البادية يضعون على رؤوسهم مظلات من خوص لها دائرة واسعة تقيهم حر الشمس («رينو»، ص 37).

أما التغذية فإن مبادئها عند العرب منطقية مقبولة كلها، ورغم تقليل كثير من المغاربة من أكل الخضروات الفجة والفواكه التي تحرمهم من الحوامض الضرورية للحفاظ على الهيكل الجسماني فإنهم كانوا يعوضون ذلك بالألبان الحامضة («رينو»، ص 37).

أما في الأندلس فقد برز ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعي في عصره حيث عرب «مفردات ديسقوريدس» وزاد عليها الأدوية المعروفة عند العرب والتي جهلها ديسقوريدس، وتوجد في اسطنبول نسختان من «كتاب الحشائش»، وقد وجه الإمبراطور الروماني إلى عبد الرحمن الناصر نسخة باليونانية مع صور ملونة للنباتات ترجمها إلى العربية الراهب نيكولا (عام 951 م)[1].

ولابن الجزار «كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة»[2] وقد صنف في هذا الكتاب رجالات غيره مثل محمد ابن سعيد الصقلي الذي كان يتكلم بالإغريقية وعبد الرحمن بن هيثم الذين توصلوا إلى معرفة جميع الأدوية المفردة باستثناء عشرة منها؛ وقد أكملها ابن جلجل في دراسة لتاريخ العلوم الطبيعية بعد اتصاله بالراهب نيكولا (لوكلير، ج ا، ص 420). وممن ألف في الأدوية المفردة الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد، فرتب قواها ودرجاتها فكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن أو بما يقرب منها، وإذا اضطر الدواء إلى المركب لم يكثر التركيب بل يقتصر على أقل ما يمكن له. وله غرائب في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه («نفح الطيب»، ج 2، ص 874). فبذلك يكون أول من دعا في دراسته الصيدلانية إلى اختصار مجهود علماء الصيدلة؛ ولكن أبا القاسم، خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التعريف بمن عجز عن التأليف»، أدرج في كتابه هذا صورا لحدائد الكي وآلات العمل[3]. وفي هذا القرن (وهو الرابع الهجري) -الذي ازدهر فيه الطب في المغرب وما يتصل به من أدوية وعلاجات- لوحظ أن المغرب كان خلاله أشد أقطار الإسلام عمقا من الناحية العلمية (لوكلير، ج ا، ص 407).

وقد أكد القفطي في («أخبار الحكماء»، ص 75) أن المعز الفاطمي قد رافقه إلى مصر من أرض المغرب أطباء مهرة. والواقع أن هذا العلم لم يزدهر في المغارب الثلاثة إلا منذ القرن الخامس الهجري تحت حكم الموحدين، بعد أن ارتبط تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب، حيث لم يسبق له أن تحرر —كما يقول لوكلير (ج 2، ص 72) – كما وقع في هذا العصر. ومن جملة الأندلسيين ممن كان له الأثر الطيب في هذا المجال الغافقي أبو جعفر أحمد بن محمد صاحب «كتاب الأعشاب»، وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب كتاب «المرشد في طب العيون»؛ ويوجد كتاب للغافقي في دار الآثار العربية بمصر[4]؛ ومنهم ابن العوام مؤلف «كتاب الفلاحة» المتضمن لمعارف تطبيقية ووثائق ثمينة وهو أبو زكرياء يحيى ابن محمد، الذي ربما عاش في القرن التالي (السادس الهجري) كما يرى كازيري، ولا نعرفه إلا من خلال مصنفاته، وقد ظهر في المغرب بسبتة الشريف الإدريسي الذي اشتهر في فنون شتى كعلوم الهيئة (الفلك) والجغرافية والفلسفة والطب. وطاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية والأندلس وفرنسا وانجلترا ووصف نباتات كل قطر «رسائل البشرى».

وأصبحت هذه المصنفات أساسا دراسيا لرجال القرن المقبل أمثال ابن البيطار المتوفى في عام 646 هـ («النفح»، ج 2، ص 871) وهو من مواليد (مالقة)، وقد تتلمذ لأبي العباس النبَطي، وهما أعظم النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم، ولم ينجب الشرق في هذه الأثناء من أعظم الرجال سوى فخر الدين الرازي، فاستطاع الأندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب وما والاهما في العالم الإسلامي (لوكلير، ج 2، ص 72). وقد صنف أبو عبد الله البكري صاحب «المسالك» كتابا حول أعشاب الأندلس وأشجارها نقل عنه

ابن البيطار. وقد وصف في مسالكه بعض الظواهر الغريبة من تاريخ علم الطبيعة كالأعشاب المسهلة وأشجار (أرگان) التي أشار إلى وجودها في طريق أغمات إلى فاس، وقد ترجمت إلى اللاتينية أهم كتب الطب والأدوية منها أربعة وعشرون كتابا في القراصيا «حب الملوك» بلغة أهل فاس. وقد نبغ في المشرق في القرن السابع الهجري أمثال السويدي صاحب «التذكرة» –المتوفى عام 691 هـ[5]، وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري الوزير الملقب بالقاضي الأكرم (المتوفى عام 646 هـ)، وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ)، والذي امتاز في وصف أعشاب مصر. وهكذا كان في القرن السابع في الشرق بمصر ازدهار ثم انهيار نسبي للعلوم كما كان قبله القرن السادس في الأندلس؛ ولكن لم يكد يمضي العقد الأول من القرن السابع – أي بعد وقعة العقاب التي انهزم فيها الموحدون (عام 609 هـ) وكان السبب في هلاك الأندلس كما يقول ابن عذارى (ج 4، ص 240)– حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تألق نجمه منذ عهد الناصر الأموي طوال ثلاثة قرون.

نعم في العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت – كما يقول لوكلير (ج 2، ص 240) – جماعة من الأطباء التفّت حول ملوك المرابطين والموحدين، ويظهر أن المنصور الموحدي باني مدينة رباط الفتح بدأ يحارب الفلسفة والفلاسفة حتى اضطر ابن رشد إلى التخلي عن الخوض في ذلك، ولكنه ما لبث أن أعاد الحظوة إلى طبيبين بارزين هما ابن رشد وأبو جعفر الذهبي، حيث كلف هذا الأخير بالسهر على مصالح الأطباء وتنظيم مهنة الطب. وقد أكد (رينو)[6] أن المغرب لم يقم في هذا العصر بدور يذكر ولكنه احتضن علماء الأندلس فكان له الفضل في ذلك.

على أن هذا الاحتضان أتى أكله حيث كان أبو العلاء زهر بن زهر أول طبيب أندلسي ورد على المغرب. ووالد أبي العلاء هو أبو مروان عبد الملك ابن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم مصر والقيروان («النفح»، ج 1، ص 445)، وكانت له آراء شاذة في الطب والصيدلة منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفّن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة («عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، ج 2، ص 64).

وقد تمخضت تجارب أبي العلاء عن تأليفه لكتاب «التذكرة»[7] الذي ترجمه كولان عام 1911 بباريس، وهو مجموعة ملاحظات سجلها أبو العلاء لولده لتعريفه بالأمراض الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة لها. وقد جمعت ملاحظات أخرى لأبي العلاء سجلها في أوراق وهي (المجربات) التي دونت في مراكش عام 526هـ (يوجد مخطوط منها في مكتبة الاسكوريال رقم 844)، كما توجد لأبي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن إسحاق الكندي حول تركيب الأدوية.

وقد انتقد ولده أبو مروان بن زهر في كتاب «الاقتصاد» (مخطوط بباريس، رقم 2959)، فانتقد الأطباء الذين كانوا يصفون للمريض الدواء دون تمحيص لحالته في جميع خواصها؛ وقد قرأ أبو الحكم ابن غلندو الإشبيلي الشاعر كتاب «الاقتصاد» وهو بسجن مراكش حيث مكث نحو عشر سنين، وهنا بدأ الطبيب الماهر يمحص أكثر فأكثر في الدواء قبل وصفه للمريض فأصبح بذلك يتدخل مباشرة في مهنة الصيدلي. وكان أبو العلاء والده يوصي ببطيخ فلسطين وهو (الدلاح في عرف المغاربة) في أمراض الكبد، ويعالج بجس النبض والنظر إلى قوارير البول؛ وقد ألف أبو مروان بن زهر كتاب «الترياق السبعيني»، وأنبت

للخليفة عبد المومن بن علي الموحدي (كرمة) كان يسقيها من ماء مسهل لكراهية عبد المومن شرب المسهلات، فصار يعطيه من ثمارها؛ وقد ألف له كذلك كتاب «الأغذية» (ابن أبي أصيبعة، ج 2، ص 66)[8]. ولعل نجاح ابن زهر في هذه التجارب هو الذي حدا ابن عبد الملك أن يؤكد في كتابه «الذيل والتكملة» أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

وقد نهج ابن زهر في كتاب «التيسير» أسلوبا جديدا في التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج. فلم يكن من (صناع اليد) كما أصبح بعض الصيادلة، وكان يجرؤ على إعداد الأدوية بنفسه غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء، على خلاف الرازي، وقد تحدث بإسهاب عن الأعمال اليدوية الموكولة لأعوان الطبيب، كما تحدث عبد الملك عن نفسه فذكر أنه كان ولوعا عكس والده بالمباشرة اليدوية في الصيدلة حيث توصل إلى معرفة الأدوية وجودة تركيباتها والكشف من خلال ذلك عن أمراض جديدة . فكان إذا عالج مريضا نسي نفسه واستهلك في مريضه، وهذا هو سر عبقريته، فكان يعيش كل حالة شائبة يمر بها المريض. وبفضل هذه التجربة العقلانية تطورت شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام.

وبدأ التمحيص والترتيب منذ ذاك، إذ كانت الحكمة تشمل جميع الفلسفة والعلوم، إلا أن ابن القاضي أكد أن الحكيم أصبح عبارة عن الناظر في العيون لا في الأبدان لأن هذا هو الطبيب («درة الحجال»، ص 117).

أما أبوبكر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف بابن باجة فهو شيخ ابن رشد المتوفى بفاس[9] (ابن أبي أصيبعة، ج 2، ص 63). ولم يصلنا شيء

من المؤلفات الطبية المنسوبة لابن باجة، إذ لا يعرف إلا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في «جامع المفردات». ومن تلامذة ابن باجة أبو الحسن سفيان الأندلسي (المتوفى عام 537 هـ) الذي تعاون مع شيخه في «كتاب التجربتين» (لوكلير، ج 2، ص 79).

وأبو يحيى بن قاسم الإشبيلي هو صاحب (خزانة الأشربة والمعاجين) وكان والده في خدمة يوسف وقد توفي بمراكش أيام المستنصر الذي جعل ولده في موضعه بالخزانة («طبقات الأطباء»، ص 79).

وأبو جعفر أحمد بن حسان الغرناطي طبيب المنصور الموحدي هو الذي رافق ابن جبير في رحلته إلى الشرق ودفن بفاس وقد ألف للمنصور «كتاب تدبير الصحة»، وتوالى آنذاك أطباء أندلسيون على حواضر المغرب الأقصى من بينهم أبو جعفر بن الغزال (الذي كان المنصور يعتمد عليه في تركيب الأدوية والمعاجين)، ومحمد الندرومي وأحمد بن سابق وابن جلاء المرسي وآخرون غيرهم من الأندلسيين الذين عاشوا بالمغرب وقطن معظمهم بفاس أمثال أحمد بن مضا اللخمي الغرناطي (المتوفى عام 506 هـ -«الجذوة»، ص 86)، وأحمد بن عبد الله بن موسى (المتوفى عام 581 هـ)، أو بمراكش مثل أبي الحسن علي بن أحمد الشلطيشي «الذيل والتكملة». وكان من بينهم أعلام مغاربة أمثال محمد بن أحمد بن صالح العبدي (ابن أبي أصيبعة، ص 65)، وعلي بن يقظان السبتي الذي رحل إلى مصر (عام 564 هـ) ثم إلى اليمن والعراق (القفطي، ص 160)، ويوسف بن يحيى السبتي المعروف بابن سمعون طبيب ميمون أمير حلب والملك الظاهر، أما أبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالمغربي فقد كان

(حسب «الخريدة» للعماد) طبيب المارستان في معسكر السلطان السلجوقي محمد بن شاه («النفح»، ج 1، ص 391)، وهذا المارستان كان ينقل الأدوية على أربعين جملا لعلاج سكان البادية والجبل.

ولأبي جعفر عمر بن علي (القلعي) المغربي كتب في الأدوية والأمراض وعلاجها، وكان له في دمشق دكان للعيادة (توفي عام 576 هـ)كما لابن رشد؛ وقد توفرت في (دار الفرج) بمراكش وهي (مارستان المرضى) على خزانات الرياحين والأشربة المختلفة («الاستبصار في عجائب الأمصار» و«المعجب» للمراكشي، ص177) توزع على المرضى بالمجان خاصة منهم الفقراء، وهذا المستشفى هو الذي وصفه (ميبي) في كتابه حول الموحدين الذي صدر عام 1923، فلاحظ أن ممرضات بباريس تخجلن أمام روعته وتجهيزاته؛ ولا بدع إذا كان هذا المستشفى الموحدي بهذه المثابة ، فقد لاحظ (ولتر) في «مختصر التاريخ» : «أن علم الطب والتداوي ازدهر عند العرب على حين كان الأوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه، إذ أن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التي كان يبيعها رجال الدين». ولاحظ (لوكلير، ج 1، ص 351) أن الأوربيين كانوا يضطرون إلى اللجوء للمستشفيات العربية حيث لجأ الملك (شانجه) إلى قرطبة للعلاج من مرض الاستسقاء.

وبعد هذه السلسلة من التطورات في طريق الازدهار جاء العصر المريني والوطاسي الذي امتد حوالي ثلاثة قرون (من عام 637 هـ إلى مقتل أبي حسون

عام 961 هـ) حيث تقلب المغرب في أطوار متدرجة إلى الانهيار، وهذه الحالة التي بدأت تسود المغرب جيلا بعد جيل لم تمنع أبا يوسف المريني من إقامة مارستانات خاصة في جنوب المغرب ولكنها ما لبثت أن استحالت إلى مارستانات للمجانين («الذخيرة السنية»، ص 100)؛ فأصبح (مارستان سيدي فرج) يعالج الأمراض بالموسيقى (كتاب «كنوز الصحة ويواقيت المنحة»، ص 72). واضطر المغرب في القرن السابع إلى الاستعانة بأطباء مسلمين من خارج المغرب أمثال أبي العباس أحمد الأصبهاني طبيب أصبهان الذي قضى آخر حياته الطبية بالمغرب. ولكن المراكشي صاحب «المعجب» ذكر عن فاس حوالي (عام 620 هـ) أي بعد مرور بضع سنوات على ظهور المرينيين (عام 613 هـ)، أنها حاضرة المغرب وموضع العلم اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة.

وفي هذه الأثناء تألق في المشرق والأندلس (خاصة في علم النبات الذي له صلة وثيقة بالأعشاب والعقاقير)، نجم أمثال النبطي وتلميذه ابن البيطار الأندلسيين ورشيد الدين الصوري (المتوفى عام 639 هـ) وهو أكبر نباتيي العرب. والنبطي وهو أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية[10]. ولد في إشبيلية (عام 561 هـ) ودرس الأعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس من تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع. وقد رحل إلى المشرق (عام 613 هـ أو 614 هـ) بعد ما درس أعشاب الأندلس ومر بالمغرب حيث أشار في كتابه إلى أعشاب ومدن مغربية، ودعاه الملك الأفضل للاستيطان بالقاهرة فأبى. وقد صنف كتابا كبير الفائدة في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ففاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه، وتوفي في إشبيلية عام 638 هـ، («النفح»، ج 1، ص 635).

أما ابن البيطار فقد ذكر لوكلير (ج 2، ص 225) أنه أعظم نباتيي العرب لا يضاهيه سوى الغافقي والشريف الإدريسي وأبي العباس النبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة. وقد استفاد ابن البيطار مما كتبه الصوري وتنقل في بلاد الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب وخلف لنا أعظم مجموعة في العلوم الطبيعية الطبية عند العرب، وعندما رحل إلى الشرق (عام 1216م أو 1217م) سجل ملاحظات حول الأعشاب وبعض الأسماء البربرية التي اندرجت منذ ذلك في القاموس العربي. ولدى وصوله إلى مصر عينه الملك الأفضل رئيس عشابي القاهرة وقيل رئيس أطباء مصر. وكان ابن البيطار يتجول في الشام مع تلميذه ابن أبي أصيبعة للبحث عن الأعشاب. وذكر المقري أن ابن البيطار حشر في كتابه ما سمع به وقرأه في تصانيف «الأدوية المفردة»، وسافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب، وقد اختلفت بعض التسميات بين المشرق والمغرب، فكان علماء النبات يسمون في الشرق بالعشابين والشجارين والنباتيين والحشائشيين كما في «التذكرة التيمورية». وأما كتابه «جامع المفردات» فهو أكمل وأوسع ما صنفه العرب في الصيدلة، وقد ترجمه (لوكلير) إلى الفرنسية وهو يتضمن ألفي وصفة (2000) من وصفات العقاقير. وقد أشار ابن البيطار في كتابه إلى صيادلة مثل عبد الله بن صالح الكتامي المغربي والنبطي وأبي الحجاج الإشبيلي كأساتذة له نقل عنهم عند تعرضه للأعشاب التي شاهدها باسبانيا والمغرب وبالأخص بفاس (ص 281).

وكتاب الأدوية للشريف الإدريسي مليء بالملاحظات الشخصية، الذي اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (لوكلير، ج 2، ص 8) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص 68).

وبالرغم عن وفرة أعلام عديدين من الأطباء والصيادلة بالمغرب والأندلس إلى أن بدأت فترات القهقرة ثم الانهيار، فإن المشرق مر بحقبة عصيبة فتت في عضد التعاليم والعلوم بسبب غارات المغول الذين ما لبثوا أن اعتنوا بالعلماء بعد إسلامهم بفضل جهود الطبيب قطب الدين الشيرازي تلميذ الفخر الرازي، وتخرج عند ذاك أمثال القزويني العالم في الطبيعة الذي يشبهه الغربيون بالعالم (بلين).

وقد ورث بنو الأحمر بالأندلس حضارة العرب وأصبحت غرناطة التي ظلت تابعة لبني مرين فترة من الزمن ملجأً للعلم والفن في أوربا المسلمة إلى سقوطها في يد الأسبان (عام 882 هـ). وباحتلال سبتة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب ومختلف التعاليم مع تطبيقاتها ظهرت مصنفات منها «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب».

وظل الأندلس مع ذلك في طليعة العالم الإسلامي علما وحضارة طوال القرن الثامن وبداية التاسع الهجري رغم ما حدثنا به (ابن بطوطة) عن المدرسة النظامية وأساتذتها ببغداد ؛ فقد لاحظ (لوكلير، ج 2، ص 258) في هذه الفترة تسجيل نحو الأربعين عالما نصفهم من الأندلس، كما ظهر بالمغرب أبو العباس الشريشي السلوي الذي أخذ عن ابن بنان وتوفي بالفيوم من مصر (عام 641هـ) («الأعلام» للتعارجي المراكشي، ج 1، ص 351)، ومحمد بن أحمد بن خليل السكوني الذي صنف في الطب والبيطرة وجمع بين كتابي أبي مروان بن زهر وابنه أبي بكر في الأغذية.

وقد حاول محمد البرتغالي انتشال نفوذ الوطاسيين بإيقاف الزحف البرتغالي على المغرب فأخفق، مما حدا بالشعب إلى تنظيم مقاومة جريئة تزعمها السعديون، ثم دخل المغرب كما يقول طيراس في كتابه («تاريخ المغرب»،

ج 2، ص 144) في أزمة شديدة تغلغلت في سويدائه طوال قرن ونصف قرن ثم تمخضت آخر الأمر عن المغرب الحديث. وقد أكد (رينو) في كتابه («الطب القديم بالمغرب»، ص 75) أنه بعد عصر بني مرين سادت في المغرب الفوضى فأفل نجم فاس إبان السعديين ولم يذكر أي طبيب في المصنفات الكلاسيكية خلال هذه الحقبة إلى القرن الثامن عشر الميلادي حيث لوحظ أهم مصنف «ذهاب الكسوف» للطبيب المراكشي محمد بن عزوز، ولكن (رينو) هذا عاد فأكد في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ الطب (طبعة جنيف، ص 3، عام 1926) أن ملوك الشرفاء أعادوا تدريجيا وحدة البلاد.

وقد تحدث ليفي بروفانصال في كتابه «مؤرخو الشرفاء» عن نهضة المغرب من الوجهة الأدبية، فمن الغريب أن لا يجد مثل هذه النهضة في العلوم، كما يقول بروفانصال، وإن كان هذا التساوق غير لازم.

والواقع أن دراسة العلوم تقلصت بالمغرب في هذه الحقبة رغم ظهور علماء كانوا إلى الفقهاء أقرب منهم إلى دارسي الطب أمثال عبد الرحمن سقين القصري الفاسي الذي شارك في الحديث والتصوف وأقرأ ألفية ابن سينا («نيل الابتهاج»، ص 153)، وكذلك أبو القاسم الوزير الغساني الذي شرح «حميات ابن عزرون»[11] وصنف كتابه في الأعشاب («الدرر» لابن القاضي، ص 466)، كما صنف «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار» («نشر المثاني» للقادري، ج 2، ص 125).

وعرف المغرب أعلاما آخرين في هذا المجال حللتُ بعض أعمالهم في كتابي «الطب والأطباء» (طبعة الرباط 1961، ص 59)، ككتاب العلامة عبد

عبد الرحمن الفاسي صاحب «الأقنوم في مبادئ العلوم» في تفسير الأعشاب، وكذلك الأرجوزة الشقرونية التي قال (رينو) عنها بأنها إسهام من المؤلف في ضبط المصطلحات الطبية في قاموس الطب المغربي («خطاب رينو»، ص 5، عام 1926)، والعلامة أحمد بن حمدون ابن الحاج الذي يعطينا حسب رينو («الخطاب»، ص 8) تقسيما فنيا للأدوية.

ولكن بالرغم من انخفاض المستوى العلمي والاجتماعي بالمغرب فقد كانت الوفيات قليلة إذا استثنينا الظروف الخاصة؛ فقد ذكر الحسن الوزان (وهو ليون الإفريقي) أن معدل العمر بلغ ما بين 65 و70 سنة ويرتفع أحيانا إلى 100 سنة، بينما ينخفض في ليبيا إلى 60 سنة وأقل من ذلك في السودان (ماسينيون، ص 83).

ويدل على عقم الصيدلة نسبيا في هذه الآونة ما لاحظ الحسن الوزان من أن العقاقيريين (أي الصيادلة) بفاس في عصره لم يكونوا قادرين على تركيب الأشربة والأدهان طبقا لما يصفه الأطباء، فكانوا يجتمعون كلهم لتركيبها ثم يرسلونها إلى دكاكينهم لتوزيعها حسب الوصفات، وهذه الظاهرة الجديدة تنم عن أمانة وإخلاص للمهنة.

وهذا لم يمنع من مواصلة تدريس جملة من الكتب الطبية في كل من جامعة القرويين بفاس وكلية ابن يوسف بمراكش (دلفان في كتابه «فاس وجامعتها» عام 1889)، وخاصة كتابي داود الأنطاكي «التذكرة» و«النزهة»، وقد لاحظ بنسيمون في كتابه حول (الطب والأطباء بالمغرب) قبل الحماية (مجلة المغرب الطبي، شتنبر 1951) أن الطب البدائي التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة

حالات أنواعا من العقاقير لم يعد نزاع في جدواها، منها مواد للتلقيح ضد أمراض كانت منتشرة بالمغرب مثل مرض المعز المعروف بالبيور.

ولكن ملوك المغرب لم يبقوا مكتوفي الأيدي إزاء ما داهم البلاد آنذاك من اضطرابات (مجاعات وأوبئة)، فقد أصدر المولى محمد بن عبد الله ظهيرا في (11 رجب 1283هـ) موافق (18 نونبر 1866) جعلت بمقتضاه جزيرة الصويرة محجرا صحيا للحجاج، وكانت توجد في بعض مدن المغرب لجنة صحية للسهر على الصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الأسواق مع مراقبة المحتسب للمهن الحرة وخاصة الأطباء والعقاقيريين.

ولعل آخر رموز الطب وتطبيقاته بالمغرب قد تجلى في شخصية المولى عبد السلام العلمي الذي كان من حاشية المولى محمد بن عبد الرحمن وولده الحسن الأول والذي صنف كتابا سماه «ضياء النبراس في مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس» وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطة تحول في تاريخ الصيدلة بالمغرب.

ومع ذلك فإن المغرب فقد كل أسيسة علمية جديرة بتاريخه الحضاري فأصبحت المستشفيات وهي أحد مظاهر التنمية مجرد ملاجئ للمعتوهين والمجانين.

الهوامش

1) وانتسخت أخرى في بغداد عام 637 هـ (حسب ميلاح) ماسينيون، ج 2، ص 93).

2) يوجد في المكتبة الوطنية بالرباط مرتا على الحروف في مختصر لمؤلف غير مذكور.

3) يوجد منها في المكتبة الوطنية بالرباط (عدد 1427) 28 صورة مع صور لمكاوٍ أخرى للأضراس والمعدة والكبد والطحال والقدم والساق والرحم والمثانة الخ...

4) توجد نسخة في خزانة المجلس البلدي بالإسكندرية تحتوي على (380) رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم وذلك ضمن الجزء الثاني عشر من «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري خاص بالنبات.

5) يوجد في المكتبة الوطنية بالرباط مختصر لـ «التذكرة» لعبد الوهاب الشعراني المتوفى عام 973 هـ في 141 ورقة.

6) في كتابه «الطب القديم بالمغرب» نشرة معهد الدراسات المغربية العليا، عدد أ، ص 72).

7) ترجم حنان دوكانو «التذكرة» من العبرانية إلى اللاتينية (توجد نسخة منها في مكتبة كلية الطب بباريس ثم توالت التراجم عام 1280م، طبعت عشر مرات بين 1490م و1554م، وتوجد نسخة يرجع تاريخ طبعها إلى عام 1531م تحتوي على «كليات» ابن رشد. ويوجد بمكتبة باريس مخطوط لأبي العلاء حول (الخواص) منه استقى ابن البيطار «خواص لحوم الحيوانات»

8) وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس مجموعة تحت (رقم 2960) تحتوي على كتابي «الأغذية» و«التيسير» لابن زهر و«التذكرة» لأبي العلاء و«رسالة في الأدوية».

9) ورغم (مونك) أن ابن رشد لم يتلمذ لابن باجة الذي مات عام 525 هـ /1138م وغمر ابن رشد اثنتا عشرة سنة وقد كتب ابن أبي أصيبعة تاريخه بعد وفاة ابن رشد بأربعين سنة «مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية» ص 420) كما خطأ عمر فروخ في كتابه «ابن طفيل وقصة حي ابن يقظان» (310) حينما زعم أن ابن طفيل قرأ على ابن باجة.

10) ذكر ابن الخطيب في «الإحاطة» أن ابن الرومية يقال له (ابن العشاب) كان إماما في الحديث حافظا ناقدا قام على الصناعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول.

11) توجد في المكتبة الوطنية بالرباط نسخة من «الروض المكبود في شرح أرجوزة ابن عزرود» في 130 ورقة كما يوجد بها شرح لنفس الأرجوزة لأبي الفضل محمد العجلاني (في 18 ورقة)، وكانت مكتبة (الفرع الاجتماعي بطنجة تحتوي على نسخة مخطوطة بخط المؤلف من كتاب «الروض المكبود».